تفريغ لقاء:

من منزلة اليقظة
إلى منزلة المُحاسبة

للشيخ: عبدالله العجيري

لم يراجعه الشيخ

لمن لديه أي ملاحظة على التفريغ فليصلنا بها عبر البوت التالي مشكورًا:

بوت تواصل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فها نحن مع الوِرد الثاني من قراءتنا ومدرستنا لكتاب (الإكسير)، وهو كتاب مُهَذَّب عن مُهَذَّب لكتاب الإمام (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى-؛ كتابه العظيم الجليل (مدارج السالكين)، فـ(مدارج السالكين) تم تهذيبه واختصاره وتقريبه في كتاب (تقريب مدارج السالكين) من مطبوعات دار ابن الجوزي، ثمَّ قُرِّب هذا التقريب في كتاب (الإكسير) الذي نتذاكره ونتدارسه، وهو يتصل بمجالٍ علميٍّ ومعرفيٍّ في غاية الأهمية ممّا غفل عنه كثير من أبناء المسلمين اليوم؛ وهو ما يتعلق بمجال علم السلوك، وعلم التزكية، وأعمال القلوب.. وغيرها من اللافتات والعناوين، وهو مجالٌ ينبغي أَن يهتمّ به الإنسان؛ لأنَّه من خلاله يتم تنمية وتثمير إيمانه بالله -تبارك وتعالى-، وهو جريٌ على سنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- وأحد وظائف الأنبياء والمرسلين؛ وهي التزكية، لذا كان من أدوار النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- التعليم، والتزكية، وتبليغ كتاب الله -تبارك وتعالى- وسنته -صلى الله عليه وسلم-.

ومما نلحظه مما يتعلق بهذا الكتاب -ولعله تمَّ تداوله في الوِرد الماضي، ونحن الآن في الوِرد الثاني من قراءتنا لهذا الكتاب- ما يتعلق بسورة الفاتحة وتلك الدقائق الإيمانية التي أبرزها الإمام (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- والدقائق العقدية، والدقائق العلمية التي أوردها من هذه السورة العظيمة، والحقيقة أنَّ الدخول إلى موضوع تزكية النفس عبر بوابة الفاتحة يعبُّر:

*أولًا: عن اهتمام وعناية بما اعتنى به الله تبارك وتعالى واعتنى به الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم-، فينبغي أن تكون مشاريعنا الاصلاحية مرتبطة بكتاب الله -عزوجل- وبسنة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- من جهة أنَّما كَثُرتداولُ الكتاب العزيزله، أوكَثُرتداول السنة النبوية له ووقع الاحتفاء به فينبغي أن يكون محلاً للحفاوة عندنا، ولا شيء من القرآن الكريم يجد الإنسان حفاوة القرآن الكريم به كحفاوة القرآن وحفاوة السنة بفاتحة الكتاب -التي هي أعظم سورة في كتاب الله تبارك وتعالى- وربط المشروع الإصلاحي بعملية التكرارهذه التي تقع للإنسان المسلم في صلواته بقراءة سورة الفاتحة ليكون كالمُذكِّرله دومًا بهذا المشروع الإصلاحي، وأنَّه على الدوام يستحضرتلك المعاني الإيمانية كلما تداول بالذكر هذه الآيات الطيبات المباركات من سورة الفاتحة .

والحقيقة الإمام (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- وهذا لمجرد التنبيه له كلام ماتع جميل مطول فيما يتعلق بهذه السورة العظيمة الجليلة في كتابه العظيم (بدائع الفوائد).

والحقيقة أن الموضوع الذي يدورعليه وِردنا اليوم -بإذن الله تبارك وتعالى- هو مدخلٌ إيمانيٌ وتزكويٌ في غاية الأهمية؛ وهو سؤال كيف يبتدئ السالك الطريق؟ كيف يمكن أن ينبعث ذلك المعنى الإيماني المُعيَّن في قلبه ليبتدئ مشوارالهداية؟ كيف تَحصُل للإنسان المسلم حالة اليقظة، ثمَّ الفكرة، ثمَّ البصيرة، ثمَّ العزم ليَحُطّ رحاله في أوَّل منزلة مفصليّة عمليّة؛ وهي منزلة المحاسبة؟

الحقيقة أن أحد كُبريات الإشكاليات التي نعانيها في هذا السياق الحضاري المعاصروهذا السياق الحداثي الذي نعيشه هو حالة الانغماس الشديد في القيم المادية المعاصرة، وقد خلَّف حالة الانغماس هذه في هذه القيم المادية المعاصرة أثراً هائلاً في عدم قدرة الواحد مِنَّا على التوقُّف قليلًا ليتفكّروليتأمّل وليتدبّر، والحقيقة أن المشكلة تتعاظم إذا أدرك الإنسان أن حالةً الانغماس هذه في القيم المادية المعاصرة ليست حالةً عفويةً تلقائيةً؛ و إنَّما هي حالة صناعية؛ فنحن أمام صناعة هائلة عبَّرعنها الدكتور(عبد الوهاب المسيري) بـ"صناعة اللذة"، فالمزاج المعاصرالذي نعيش فيه يتطلب منّا ويريد منّا أن نُستَبقى في حالة هذا الانغماس الشديد، فنحن أمام قطاعات مختلفة للترفيه وللذة كقطاعات الفن على سبيل المثال وما يصدرعنها من مسلسلات و أفلام وغيرها، وقطاعات الرياضة على سبيل المثال، وقطاعات الألعاب وغيرذلك من القطاعات التي تخلق حالة شديدة من حالات الانغماس في عملية الاستهلاك،

ولذا فمن القضايا التي أنظرإليها بقدرمن الاسترابة أحياناً حالة الإقبال -التي يستطيع الإنسان أن يُقَيِّمها من حيث الجملة بأنَّها ظاهرة إيجابية- على استهلاك المواد المعرفيّة سواء كانت المواد المعرفية هذه قراءة أوسماع، وما تصاعد - على سبيل المثال- ما يتعلق بـ(البودكاست) في الفترة الأخيرة إلَّا نوعٍ من أنواع الاستجابة لحالة الإقبال وحالة الطلب لاستهلاك المواد المعرفية، لكنّني أنظر بقدرٍمن الريبة للمُحرّكات والبواعث لهذه الحالة؛ وأزعم أنَّ جزءًا من هذه الحالة تعود إلى ما أُعَبِّرعنه "بفوبيا الملل"؛ عندنا حالة من حالات التخوّف

الشديد من أن يقع الإنسان أسير حالة الملل وحالة التضجر، ولذا من الملاحظات الشخصية التي تلمَّستُها من نفسي أنَّني عندما أصل إلى مكان معين وأريد الذهاب -مثلاً- إلى المكتب في العمل -على سبيل المثال-، فأوَّل شيء أفعله بمجرد ما أوقف السيارة أني أدخل يدي في جيبي وأستخرج السماعات وأضعها في أذني، ثمَّ أشغل مقطعاً لمحاضرة، أو لدرس، أو لـ(بودكاست) أو لغير ذلك ثمَّ أمضي خطواتي مُتَّجهاً إلى المكتب في عملية لا تكاد تستغرق قريب الثلاث أو الأربع دقائق تقريباً، ثمَّ بمجرد وصول المكتب أقوم بانتزاع السماعات من أذنيّ ووضعها في جيبي و أبتدئ كما يقال مشوار العمل، هذه الثلاث أو الأربع دقائق لما بدأت أتأمل في البواعث والمحركات.. هل هي حالة من حالات التَّقَصُّد الشديد لاستثمَّار الوقت والاحتفاء به والاعتناء، وأنَّ الإنسان لا يريد أن تفوته لحظة -كما يقال- إلا وهو يستثمر وقته؟ أم أن المحرك الحقيقي والباعث هو نوعٌ من أنواع التخوّف الشديد من أن لا يفعل الإنسان شيئًا في هذه الثلاث أو الأربع دقائق خشية من أن ينتابه الملل والضجر؟ يريد أن يستبقي حالة الاستهلاك على الدوام؟

المشكلة الخطيرة التي تُخلِّفها هذه الحالة من حالات الانصراف الشديد نحو الاستهلاك المعرفي والمُحرَّك بالخشية والخوف من قضية الملل: أنَّها تعطل قدرتنا وطاقتنا على قضية التفكير.

ولمَّا نتحدث الآن عن مثل هذه المنازل التي تكلم عنها (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- اليقظة والفكرة والبصيرة والعزم المحاسبة.. وغيرها، فمثل هذه المسائل ومثل هذه القضايا من المعجوز أن يقوم بها الإنسان إذا كان في حالة

استهلاكٍ دائم، ما هي اللحظة التي يمكن أن تثورفيها في نفس الإنسان المسلم حالة من حالات اليقظة التي تبتعثه إلى الفكرة، فإلى البصيرة، فإلى العزم، فإلى المُحاسبة؟

فهذا مأزق وإشكال يحتاج لونًا من ألوان المراجعة، والمحاسبة، والنظر، والتأمل، ومن نظرفي و اقعنا فيما يتعلق بشبكات التواصل الاجتماعي -مثلاً- وإذا أدركنا أن هذه التقنيات وهذه المنصات صُمّمت بطريقة معينة تريد أن تستبقينا دوما في جوّها وأن نستهلك المعلومات الموجودة فيها على الدوام بما يُعَطِّل قدرتنا على أن نتوقف قليلاً نلتقط أنفاسنا، تنبعث من لا شيء -كما يقال- اليقظة، والفكرة، والبصيرة، والعزم، فهذه مسألة تحتاج الحقيقة اليوم لوناً من ألوان المراجعة، وأنَّ أحد الاشياء المُهدِّدة لحصوننا الإيمانية مثل هذه الحالة؛ تَعَطُّل قدرة الإنسان المعاصرعلى أن يتوقف قليلًا؛ ليُشْغِل عقله بمخاطبة نفسه، والتواصل معها، والبحث في المُهمّات المتعلقة بها، فلا يُتصورأن يحقق الإنسان ما يتعلق بمقام المحاسبة ما لم يعطِ الإنسان لنفسه فسحةً ومجالًا؛ ليحاورذاته ويحاورنفسه، لكنه لن يتمكن من أداء هذا الدورما دام في حالة استهلاك دائم.

دعونا نتوقف قليلاً في بعض الوقفات السريعة كما يقال - عن أهمّ المنازل التي تكلم عنها (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- في هذا الوِرد؛ وهو اللحظة العملية والمُفصلية في مسيرة الإنسان المسلم: وهو محاسبة نفسه، -يعني- بعدما تنعقد في نفس الإنسان المسلم حالة من حالات اليقظة التي تدفعه نحو البصيرة فيندفع نحو العزم، بعد ذلك تأتي لحظة مهمّة في حالته الإيمانية وهي محاسبة

روحه ومحاسبة نفسه، والتعريف الذي اختاره (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- للمحاسبة كما يُعبِّرفي ألفاظ جميلة يقول: "هي التمييزبين ما له وعليه، فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه؛ لأنه مسافرٌسفرَمن لا يعود"، ومن التعريفات التي ذكرها بعض أهل العلم عن المحاسبة ما عرَّف به (الماوردي) المحاسبة في كتابه العظيم (أدب الدنيا والدين)؛ قال: "أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدرمن أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه و أتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن و انتهى عن مثله في المستقبل ."

وأصل مشروعية المحاسبة ورد في كتاب الله -تبارك وتعالى-؛ وذلك في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون (١٨) وَلَا تَكُونُواْ كَالذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُم أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾ ، فهذه الآية القرآنية العظيمة وأمرُالله -تبارك وتعالى- للعباد بأن ينظروا لأنفسهم ما قدموه لغدٍ لا يتحقق إلا بعملية المحاسبة، ولذا يجد الإنسان أنَّ العلماء قد تتابعوا في تفسيرهذه الآية القرآنية بهذا المعنى، فيقول الحافظ (ابن كثير) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا -في تفسيره لهذه الآية- و انظروا ماذا ادَّخرتُم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم مَعادِكم وعرضكم على ربكم".

(ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- لمَّا تكلم في منزلة المحاسبة قال: "وقد دلَّ على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾"، وقال في كتابه (إغاثة اللهفان): "فإذا كان العبد مسؤولًا ومحاسبًا على كل شيء؛ حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾؛ فهو حقيقٌ أن يُحاسِب نفسه قبل أن يُنَاقَشَ الحساب". فنلاحظ (ابن القيم) استثمر آية قرآنية أُخرى كذلك في الدلالة على هذا المعنى؛ وهو قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾، فمقتضى إدراك الإنسان بأنَّه مسؤول يوم القيامة يُحفِّزه لمُسَاءَلَةِ نفسه قبل أن يُعرض عليه ذلك السؤال، وهو ذات المعنى الذي استنبطه العلماء من ذات الآية الذي نعالجه ونناقشه في قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ما قَدَّمتَ ليوم الحساب.

وأصول هذا المعنى موجودة عند صحابة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-، ومن أشهر الآثار المروية في هذا الباب قول (عمر) -رضي الله عنه وأرضاه-: "حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا". فهذه قضية ينبغي ملاحظتها وإدراكها.

والإمام (أبو حامد الغزالي) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- كذلك في كتاب (الإحياء) نصَّ على معنىً قريب من هذا فقال: "الله قائمٌ على كلّ نفس بما كسبت، محاسِبٌ على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت.." إلى أن يقول: "فمن حاسب نفسه قبل أن يُحاسب خفَّ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسِب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاتُه ."

من الأدلة الشرعية الدالة على أهمية منزلة المحاسبة هو قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- في حديث شدَّاد بن أوس قال: "الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْمَوْتِ" قال (الترمذي) - راوي الحديث، وقد حسَّنه- قال: "دان نفسه: حاسب نفسه في الدنيا قبل أن يُحاسب يوم القيامة"، ومما قاله الإمام (العز بن عبد السلام) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- في حُكْمِ المحاسبة قال: "أجمع العلماء على وجوب محاسبة النفس فيما سلف من الأعمال وفيما يُستقبل منها ."

ومن القضايا الأساسية والمهمّة جدًا التي يلاحظها الإنسان ويدركها فيما يتعلق بقضية المحاسبة وهي سُنَّة -يعني كما يقال- عند سلف الأمة الصالح في تعاملهم مع ذواتهم وتعاملهم مع نفوسهم؛ تخليق حالة من حالات الانفصال عنها، فيجد الإنسان معاني متواترة.. ومما لاحظته وأدركته و أنا أتتبع بعض عباراتهم وبعض مقولاتهم فيما يتعلق بمسألة المحاسبة هي إقامة الحوارات الثنائية بين الشخص

وبين نفسه، والتعامل معها باعتبارها كيانًا مُستقلًا عنه يُطالبها ويسعى في إرغامها وأَطْرها على الحقِّ أطرًا.

ولذا فيما يتعلق بهذا التعامل مع النفس في منزلة المحاسبة قول بعضهم: "النفسُ كالشريك الخوَّان؛ إن لم تحاسبه ذَهَبَ بمالكَ"، فمن أكبر المهددات والمخاطر التي يمكن أن تعرض للإنسان المسلم الغفلة عن نفسها وترك محاسبتها، ولذا يقول (ضيغم بن مالك): "احذر نفسك على نفسك."

وهنا يثور سؤال: كيف يستطيع الإنسان المسلم أن يحقّق مقام المحاسبة؟ كيف يمكنه أن يُحاسب نفسه؟ ما هي طبيعة عملية المحاسبة؟ ما هي بنيتها - كما يقال – الداخلية؟ ما هي التقنيات التي إذا استحضرها الإنسان تَمَكَّنَ من أن يحسن محاسبة نفسه؟

*<u>القضية الأولى:</u> في محاسبة النفس هو الشدة والدقة في محاسبة النفس، يقول (ميمون بن مهران) -رحمه الله-: "لا يكون الرجل تقياً حتى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة الرجل شريكه، حتى ينظر من أين مطعمه ومشربه ومكسبه"، وقال أيضاً: "التقيُّ أشد محاسبة لنفسه من شريكٍ شحيح". فيحاسب الإنسان نفسه على جميع أعماله ويَشْتَدُّ في ذلك، ولا يتعامل مع نفسه بليونة - كما يقال - و أنه إذا وقع في شأنٍ من شؤون الذنوب والمعاصي وأخذ في عملية المحاسبة تساهل مع نفسه فقال: إن هذه المسألة مجرّد صغيرة، أو أن هذه المسألة مسألة خلافية بين أهل العلم لم ينعقد الإجماع على تحريمها، أو أن الراجح في مثل هذه القضية

هي مجرد الكراهية.. أو نحو ذلك، بل يشُد في محاسبة نفسه ويتعامل معها بموضوعية و إنصاف.

*القضية الثانية: المحاسبة على كل شيء، يقول (الحسن البصري): "إنَّ المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ماذا أردتُ بكلمتي؟ يقول: ماذا أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ فلا تراه إلا يعاتبها، وإنَّ الفاجر يمضي قُدمًا فلا يعاتب نفسه". فمن القضايا كذلك التي ينبغي أن يستصحبها الإنسان في عملية المحاسبة أن يحاسب الإنسان نفسه على كل شيء، ويسعى في ملاحظة وإدراك تفاصيل يومه وما الذي صَدَرَ منه في أثناء هذا اليوم، ويبدأ يوزن تلك الأعمال ويلاحظ هل أراد الله فيها وجه الله -سبحانه وتعال-ى أم لم يرد وجه الله سبحانه وتعالى في ذلك؟

*القضية الثالثة: إلزام النفس بالأعمال الصالحة بعد المحاسبة - وهنا الثمرة الأساسية التي ينبغي أن يستحضرها الإنسان من هذه العملية- فليست القضية أن يحاسب الإنسان نفسه من غير أن يُثمر ذلك منه سلوكاً حسناً بعد ذلك؛ و إنَّما المطلوب منه بعد عملية المحاسبة أن ينتهي عن المسائل السلبية التي لاحظها في نفسه وأن يثبِّت الجوانب الإيجابية المتعلقة به، قال (مالك بن دينار): "رَحِمَ الله عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثمَّ ذمّها، ثمَّ خطمها، ثمَّ ألزمها كتاب الله تعالى فكان لها قائدًا". قال (إبراهيم التيمي)- وهذه أحد المحاورات النفسية التي أشرتُ إليها – يقول: "مَثَّلتُ نفسي في الجنة آكلُ ثمارها وأشرب من أنهارها وأُعانق أبكارها، ثمَّ مثَّلتُ نفسي في النار آكل من زقّومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أيْ نفسي،

أي شيءٍ تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنتِ في الأُمنية فاعملي ."

ما هي الحسنات، ما هي الثمرات، ما هي القضايا الإيجابية التي نجنيها متى ما أحَسَنَّا محاسبة انفسنا؟

*الثمرة الأولى: تخفيف الحساب يوم القيامة، يقول (عمر بن الخطاب) -رضي الله عنه وأرضاه-: "حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنَّه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنَّه أهون عليكم، وتجهزوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾"

*الثمرة الثانية: التمكّن من الهدى والاستقرار عليه، يقول (البيضاوي) -رحمه الله-: "والتمكّن من الهدى والاستقرار عليه إنَّما يحصل باستفراغ الفكر، وإدامة النظر فيما نُصِب من الحجج، والمواظبة على حساب النفس في العمل ."

*الثمرة الثالثة: علاج أمراض القلوب، فيدرك الإنسان ما هي الأمراض التي تَعْصِفُ بقلبه فيسعى في معالجتها.

*الثمرة الرابعة: اكتشاف مساوئ النفس وعيوبها، وعدم الاغترار بالعمل، يقول (عبد العزيز بن أبي رَوَّاد): "ما دخلتُ في شيءٍ من أعمال البر فخرجتُ منه فحاسبتُ نفسي إلا وجدت نصيب الشيطان فيه أوفر من نصيب الله"، فيلاحظ

الإنسان ما هي السلبيات؟ ما هي العثرات؟ ما هي الإشكاليات؟ ما هي العيوب الموجودة في النفس؟ فيسعى في ترميمها وإصلاحها.

*الثمرة الخامسة: عدم الانزلاق إلى حالة من حالات الغروروالكِبر، فيتفطن إلى كثرة الجوانب السلبية الموجودة فيه وأن كثيراً من الحسنات التي صَدَرَتَ منه وأوجه الكمالات المتوهَّمة هي في حقائقها مما لم يُرِد به وجه الله -سبحانه وتعالى- -مثلاً-، فيدرك التقصير الفاحش الواقع منه فلا يغترّولا يقع بالتالي في قضية العُجْبِ بالنفس أو قضية الغرور.

*الثمرة السادسة: الاستفادة من الوقت.، قال (ابن عساكر) -رحمه الله-: "أبو الفتح نصربن إبراهيم المقدسي كان يُحاسب نفسه على الأنفاس، لا يدع وقتًا يمضي عليه بغيرفائدة، إمَّا ينسخ، أويَدْرُس، أويقرأ"، فجزءٌ من المحاسن والإيجابيات المتعلقة بمحاسبة النفس؛ أن يدرك الإنسان حجم الأوقات المهدورة في يومه وليلته، فيسعى في ضبط وقته وصرفه إلى ما ينفعه .

وقد تكلم العلماء أيضاً عن أنواعٍ من أنواع المحاسبة؛ وأن المحاسبة من جهة تحقُّقها زمانياً لها نوعان أولها صورتان:

*الصورة الأولى: المتعلقة بالمحاسبة من الجهة الزمانية، محاسبة النفس قبل العمل، يقول (الحسن) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى-: "رَحِمَ الله عبداً وقف عند همه، فإنْ كان لله مضى وإن كان لغيره أمسك"، فعندنا محاسبة دقيقة متعلقة يعني بخصوص الأعمال المعينة المفصلة، بمعنى أن الإنسان قبل أن يقدم على

فعل معين مخصوص و انبعث في نفسه الهمة والعزم ليفعل ذلك الفعل يتوقف لحظة يسيرة ويُسائل نفسه: هل فعلت هذا العمل الله -تبارك وتعالى-؟ أم لا؟ فإن كان لله -تبارك وتعالى- أمضى ذلك العمل و أقدم عليه، وإن كان لغيره سعى في إصلاح نيته.

*<u>الصورة الثانية</u>: من محاسبة النفس هو محاسبتها بعد وقوع العمل، فينظر في الطاعات التي أحدثها هل قصَّر فيها في حق الله -سبحانه وتعالى-؟ هل وقع فيها إشكالٌ فيما يتعلق بالإخلاص فيها؟ هل وقع فيها مشكلةٌ فيما يتعلق بتمام متابعة النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- فيها؟ هل أتمَّ حسنها وجمالها؟ هل شهد مِنَّة الله -تبارك وتعالى- عليه فيها أن مكَّنَهُ من إحداثها؟ وغير ذلك من جو انب التقصير الممكنة في خصوص الطاعات التي وقعت منه، وكذلك يُحاسب نفسه على الذنوب والمعاصي التي وقعت منه، فيسعى في إصلاح حاله والتوبة منها، وكذلك يحاسب نفسه بعد وقوع الأعمال في إدراكِ عملٍ مفضولٍ من فاضل؛ وأنَّ هنالك شيئًا كان أكثر أهميةً فوتَ إحداثَه لانشغاله بما كان دونه في المنزلة، وكذلك من مقامات المحاسبة الدقيقة التي ينبغي أن يستصحبها الإنسان كذلك محاسبة نفسه على العادات وعلى المباحات الو اقعة منه، هل كان بإمكانه أن يجعلها لله -تبارك وتعالى- فيتحصّل من خلالها على الأجر والمثوبة من الله -سبحانه وتعالى-.

من المسائل المهمة كذلك بقضية المحاسبة، ما هي القضايا التي تُعين الإنسان المسلم على محاسبة نفسه؟

*<u>الأمر الأول الأساسي والمهم جداً</u>: والتي تثمر في نفس الإنسان المسلم مقامات إيمانية رفيعة متعددة وكثيرة جداً، هي معرفة الله -سبحانه وتعالى-، فإذا أتمّ الإنسان معرفته بالله -تبارك وتعالى- وأدرك أن الله -سبحانه وتعالى- بكل شيء عليم، و أنه بكل شيء محيط -جل جلاله- وعظمته، وأنَّ سمعه -سبحانه وتعالى - قد أحاط بالمسموعات جميعاً، وأنَّ بصره -تبارك وتعالى- قد أحاط بالمُبصَرات جميعاً، و أنه لا يخرج عن شهادةِ الله -تبارك وتعالى- له ورقابته -جلَّ وعلا - عليه؛ فإنَّ في ذلك أعظم ما يعين العبد على تحقيق محاسبة نفسه، فإنَّه يعلم أنَّه إن ترك محاسبة نفسه وغفل عنها فالله -سبحانه وتعالى- لا يغفُل .

* <u>الأمر الثاني</u>: من المسائل كذلك المعينة على قضية المحاسبة: استحضار وإدراك ما سيجنيه وسيربحه العبد من عملية محاسبة نفسه والتشديد عليها في هذه الحياة الدنيا في الغد، يقول (ابن القيم) -عليه رحمة الله-: "ويعين على هذه المُراقبة والمُحاسبة معرفته أنَّه كلّما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره، وكلَّما أهملها اليوم اشتدّ عليه الحساب غداً ."

*<u>الأمر الثالث</u>: -إذا كان يقرأ كتاب الله -عزوجل- واستحضر هذا المعنى وجد في ذلك أعظم المعونة على محاسبة النفس- استحضار مُفَصَّل الأسئلة التي أخبرنا الله -تبارك وتعالى- عنها مما سيُسَائِلُنا به -جلّ وعلا- يوم القيامة، لما يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾

فيدرك الإنسان أنَّ ما دخل من خلال سمعه أو بصره، أو تَفَكَّرَ به في فؤاده فإنّه

مسؤول عنه يوم القيامة، لما يقول الله -عزوجل-: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ فيُحاسب نفسه هل أديتُ واجب الشكر–مثلاً- على ما أنزله الله - سبحانه وتعالى- وأغدقه عليّ من النعيم؟ لما يقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِم﴾ ، لما يقول الله -عزوجل-: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِين﴾، وغيرذلك من جوانب المُحاسبة.

*<u>الأمر الرابع:</u> معرفة الجائزة، يقول (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- في (إغاثة اللهفان): "يعين عليها أيضاً - أي على المُحاسبة - معرفته أنَّ ربح هذه التجارة سُكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقَّن هذا هان عليه الحساب اليوم."

*<u>الأمر الخامس:</u> تذكر يوم القيامة .

*<u>الأمر السادس:</u> تَذَكُّر الموت، وإذا تذكر الإنسان الموت تذكر القيامة، فإذا تذكر القيامة تذكر الحساب، وإذا تذكر الحساب ابتعث ذلك في نفسه أن يسعى في محاسبة نفسه قبل أن يحاسب.

من المسائل التي نختم بها هذا التعليق - الذي أسأل الله عزوجل أن يكون نافعًا مفيدًا- بعض الصوروالنماذج السريعة من أحوال سلفنا الصالح في محاسبة ذواتهم ومحاسبة أنفسهم.

النموذج الأول (أبو بكر) -رضي الله عنه وأرضاه-؛ عن (عائشة) -رضي الله عنها- قالت: "كان أبي يحلف فقال: ما من الناس أحد أحبّ إلي من عمر، قالت: ثمَّ رجع فقال كيف قلتُ يا بنية؟ قالت: ما من الناس أحد أحبّ إلي من عمر، فقال: أعزّ"، فنلاحظ أنَّ (أبو بكر) -رضي الله عنه وأرضاه- يُدَقِّقُ ويحاسب نفسه حسابًا شديدًا فيما يتعلق بألفاظه وحروفه، يحلف بالله -تبارك وتعالى- بأنَّه ما من أحد من الناس أحبَّ إليه من (عمر)، ثمَّ يقع في نفسه بحكم محاسبته لنفسه أن هنالك خللٌ ما، أو هنالك تفويت لدقة مطلوبة؛ فليسأل بنته (عائشة) -رضي الله عنه وأرضاها-: "كيف قلت؟" فتعيد عليه كلامه فيستدرك لفظة "أحبّ اليّ" بـ"أعزّعليّ."

من النماذج كذلك (عمر الفاروق) -رضي الله عنه وأرضاه-، الذي يروي عنه (أنس) -رضي الله عنه وأرضاه- قال: "خرجتُ مع عمر -رضي الله عنه- حتى دَخَلَ حائطًا - والحائط هو البستان - فسمعته وهو يقول-وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط-: "عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخٍ بخٍ! والله لتتقيَنَّ الله أو ليعذبَنَّك."

ومن مشهور الآثار المروية في هذا الشأن الخبر المروي عن (حنظلة) -رضي الله عنه وأرضاه- وكان -رضي الله عنه وأرضاه- من كُتَّاب رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم – قال: "لقيني أبو بكر، قال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلتُ: نافق حنظلة، قال: سبحان الله ما تقول؟ قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يُذَكِّرُنَا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله

صلى الله عليه وسلم وعافسنا - أي خالطنا - الأزواج والأولاد والضيّعات فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنّا لنلقى مثل هذا، فانطلقتُ أنا و أبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: "وما ذاك؟" قلتُ: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيّعات فنسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ إنْ لو تَدُومُونَ علَى ما تَكُونُونَ عِندِي، وفي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ علَى فُرُشِكُمْ وفي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ".

فهذا الحديث -يعني- إنما هو ثمرة محاسبة النفس، فلو لم يحاسب (حنظلة) نفسه لما وصل إلى تلك النتيجة ليُفضي بسؤاله إلى النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-.

من النماذج المتعلقة بالتابعين ما جاء عن (الأحنف بن قيس)، قال (سلمة بن منصور) عن مولىً لهم كان يصحب (الأحنف بن قيس) قال: "كنت أصحبُه فكان عامّة صلاته الدعاء، وكان يَجيئ بالمصباح فيضع إصبعه فيه ثمَّ يقول: حَسّ! ثمَّ يقول: يا حُنيف ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟ ."

(الحسن البصري) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- لمَّا فَسَّر قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾؛ قال: "لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه؛ ماذا أردتُ

بكلمتي؟ ماذا أردتُ بأكلتي؟ ماذا أردتُ بشربتي؟ والعاجزيمضي قدماً لا يعاتب نفسه ."

هذه بعض المو اقف التي نُقلت عن سلفنا الصالح فيما يتعلق بتحقيق مقام المحاسبة، وهو مقامٌ إيمانيٌ عظيمٌ يفضي بالإنسان إلى تحقيق التوبة لله -تبارك وتعالى- مما يتلمَّسه من نفسه من مواطن العيب، والنقص، والتقصير، والذنب والمعصية.

ومن جميل ما أختم به كصلةٍ للمنزلة التالية - وهي منزلة التوبة - ما ذكره الإمام (ابن القيم) -عليه رحمة الله تبارك وتعالى- رابطًا بين المقامين جميعًا بقوله: "التوبة بين محاسبتين؛ محاسبةٍ قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبةٍ بعدها تقتضي حفظها ."

هذا ما تيسر ذكره، أسأل الله عزوجل أن ينفع في هذه الكلمات، وأن يُثِيب المُتكلم والسامع، والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد.